

المرجع التاريخي والمتخيل السرد في رواية حوبة لعزالدين جلاوي
reference and the narrative imagination in the novel
Hawbah by Izz al-Din Jalawji.

صالح قسيس

جامعة برج بوعريش (الجزائر)

salah.guessis@univ-bba.dz/

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2022 / 12 / 29	2022 / 12 / 08	2022 / 10 / 18

ملخص البحث

يقوم المحكي التاريخي في الرواية أساسا على عنصرَي الواقع والخيال، نظير العلاقات المتداخلة بين الأدب وفنونه، وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي تعمل مجتمعة على إكساب المتلقي معارف تجعله يدرك ماضيه بعيدا عن الانزلاقات التي قد تعترض مساره، وعلى هذا الأساس فتوظيف التاريخ سردا معطى ثقافيا يشتغل عليه الروائي بوصفه مفهوما يستدعي المخيال الفردي والجمعي، بغية إعادة تناول التاريخ بناء على المعايينة.

لذا تأتي هذه الورقة البحثية طارحة إشكالية المحكي الروائي الجزائري من خلال الوقائع ذات الصلة المباشرة بالمرجعيات التاريخية، وهو ما يعني مساءلة الموروث لاستنباط مكامن الحادثة، ونقلها للمتلقى بغية جعله في وصال مع ماضيه حتى يستقيم له استشراق مستقبله.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ التاريخ؛ المتخيل؛ الموروث؛ الثورة؛

Abstract

The historical (narration) in the novel is based mainly on those two elements of reality and imagination, in contrast to the overlapping relations between literature and its arts, and between the human and social sciences, which collectively work to provide the recipient with knowledge that makes him aware of his past away from the slips that may obstruct his path. On this basis, (employing History in narrative way is a Cultural donate) where the novelist works on it as a concept that summons the individual and collective (imagination), in order to re-examine history basing on observation. Therefore, this research paper poses the problem of the Algerian (novelist narrative) through the facts directly related to historical references, which means questioning the inheritance to elicit the potentials of the incident, and transfer it to the recipient in order to make him in contact with his past so that he can have an anticipation of his future.

Keywords: the novel; History; (the imagineer), inherited; revolution

تمهيد :

تمتد رواية حوبة والمهدي المنتظر لعز الدين جلاوي بنفس ملحني على ما يربو عن خمس مائة وخمسين صفحة متناولة تاريخ الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين ، ممتدة أحداثها بين قسنطينة وسطيف والجزائر العاصمة .
فهي بتجربتها من القصة الإطار محكي تاريخي صرف ورد تقسيم أحداثها بإحكام يراعي تتابعا كرونولوجيا لمجريات أحداثها إذ أنها تتمظهر في شكل مجموعة من الأفعال السردية تتوق إلى نهاية موجهة تنتظم في إطار سلاسل تكثر أو تقل بحسب طول أو قصر الحكاية¹ فهي - الرواية - تصوّر حقائق معيشية استهلّت بداية بذكر حوبة التي كانت مصدر إلهام الراوي ، من خلال سرده لأحداثها محدداً حيّزها المكاني المتمثل في مدينة سطيف التي ذكر منها عرشين جرت بينهما أحداث كبيرة فكانت بذلك المدينة الرمز - سطيف - أحد رموز الصمود الوطني كغيرها من المدن الجزائرية الأخرى.

فالولائم التي كانت تحضر عند حلول الضيف ، سواء استقبله شيخ الزاوية أو كبير العرش أو أولاد القبيلة ، بسينية القهوة وغيرها تدل على عراقة المنطقة وسخاء وكرم أهلها ، وقد اعتمد الروائي في سرد أحداث روايته على شخصية "سي العربي" حيث صوّره ثوريا ينمو وعيه مع نمو الثورة من خلال نمو الروح الوطنية ، فبعد أن سافر إلى المدينة وتعرّف على "سي راجح" ومن يحمل مشروعه التحرري بتخطيطهم المحكم لإشعال فتيلها ، حيث كانوا يخططون للثورة من خلال تحركاتهم السرية بغية ضم أكبر عدد من الشعب إليهم بتحفيّزهم على سبل الكفاح المسلح ، سواء بالأطر السياسية أو التمرد على قوانينه المجحفة وبث روح النضال والكفاح بين أفراد الشعب الجزائري بمختلف أطيافه ، كل هذا عكسته أفعال وتصورات الشخصيات السردية الموظفة بإحكام في بنية الرواية ، ومن ذلك هروب البطل "سي العربي" من عرشه نحو المدينة وإن كان لغاية إنسانية نبيلة إلا أنه اكتشف في المدينة أسراراً أخرى فتحت أمامه آفاق البحث عن الحرية ن متخذاً من أفنيئها ومقاهيها وطبيعة تركيبة أهلها مطيّة للوقوف في وجه المستعمر ، وما علاقته بسوزان زوجة الإقطاعي إلا دليلاً على هذا التوجه الهادف .

لتأخذ الأحداث مسارا ملحيميا تشابكت فيها العناصر الفاعلة فاتحة المجال لبروز شخصيات متعددة ساهمت في تطوير الأحداث ، وإعطاء متعة وتشويق أكبر للرواية بطابعها الكولونيالي من خلال التخطيط للثورة للتخلص من ذل الاستعمار فبعد أن كانت سلمية في شكل مظاهرات رافضة للإمبريالية ، سرعان ما تحولت إلى مجزرة شحنت غضب الجزائريين الذين راحوا يقفون في وجه الجنود معبرين عن رفضهم المطلق لتواجدتهم على أرض الجزائر مطالبين السلطات الفرنسية بتنفيذ وعدها المتمثل في خروجها من الجزائر نظير وقوف الجزائريين معها ضد المحتل الألماني في الحرب العالمية الثانية ، فكان هذا الصدام ميزة فارقة في مسار تاريخ الثورة ، يختلف كليا عما سبقه من أحداث عرفتها الساحة الجزائرية منذ 1830.

وإذا رجعنا إلى اللغة المستعملة فنجدها لغة سهلة وواضحة ، وظّف فيها الروائي اللسان الدارج غايته في ذلك توسيع دائرة تلقي النص لدى كل الفئات وهذا أعطى بعداً آخر لنصه. فبالنظر إلى الطريقة والأسلوب الذي اتبعه في سرد الأحداث وتسلسلها ، النّاص متحكماً بشكل سلس في لغة النص وهندسة مجريات أحداثه ، وهذا من خلال إعطاء أبعاد جمالية وأخرى فيمونولوجية لعنصري الزمان والمكان وحركية الشخصيات في مسار الرواية وجدلية نموها وتطورها ، وعلى هذا الأساس استطاع النّاص أن يعطي تشويقاً وإثارة للنص من خلال عنوانه أولاً ولكيفية سرده للأحداث ثانياً ، عن طريق الاستهانات في علاقاتها المتشابكة عبر اللغة والأصوات التي تمثل تفاعل اللاوعي مع الما قبل والأثناء والما بعد والمحتوى الكامن في الظاهر والباطن بلغة نظامه ترميزي أطره الإيجاز والانفتاح على عوالم اللغة داخل منطقة "الأنا الأعلى" ، وفي صلب "الهو" حيث القيم الأخلاقية والإنسانية السامية .

الرواية التاريخية من المرجعية إلى الاستشراق:

الرواية التاريخية لون من ألوان الرواية تنبني حكايا على المادة التاريخية، تقتات منها تختزل وتتصرف فيها، تقدمها بشكل يمزج بين الإبداع والتحليل والتخيل، يتمتع المبدع فيها بحرية غير محدودة مما يجعله يتجاوز عديد العقبات كونه غير مقيد بمرجعية ماضوية سابقة ما يمكنه من تجاوز حدود التاريخ فلا يستقر فيه فترة طويلة² حيث يسير تيار الزمن فيها مسارا تصاعديا دون توقف أو انقطاع مستلهما من الماضي مادته، مستشرفا المستقبل، فلا يكون العمل الفني المنضوي تحت هذا الجنس مجرد تعبير، بل خلقا وإبداعا تلعب فيه المخيلة الخلاقة دورا كبيرا بالالتفات للجوهر غير المرئي والانتباه إلى المهمل والمنسي.

ويتجلى الوعي التاريخي في رواية "حوبة والمهدي المنتظر"، في وثائق ورسائل ومصادر مشهود لها في كتابات تاريخ الجزائر وحضور شخصيات تاريخية واقعية بأبعادها ودلالاتها المختلفة، فالتاريخ غالبا ما يكون "علما سلطويا، وعن السلطة يدور حول مقولتين سلطويتين، مضمونا هما سلطة الانتصار والهزيمة ينتج ويعاد إنتاجه في مؤسسات سلطوية لا تختصر في الرقابة حاذفة مالا تريد ومبرزة ما تشاء وترغب"³. وهذا دخلت الرواية في تجليات التحديث على مستوى البناء الفني والجمالي بشكل عام، وكان للغة دورها البارز في النهوض بمسار السرد إلى أفق أرحب، مما انعكس إيجابا على عامل الزمن - زمن الأحداث - الذي أعطى بعدا جماليا وآخر تداوليا للنص متخلصا من نمطية الواقع، في توافق تام مع عقلية المتكلم والأحداث المتخيلة قصصيا.

وقد مارس التاريخ سلطته قصرا على الروائي، بعيدا عن كل ما يشوبه من غموض قاصدا إبراز عديد الأحداث الخالدة في مسار الثورة الجزائرية، ومواقف الثوار الجزائريين بمختلف توجهاتهم السياسية والإيديولوجية ومشاربهم المعرفية، يتقاطعون في هدف واحد هو الدفاع عن الثوابت الوطنية وتحقيق الغاية السامية وهي الاستقلال، ملتصقا شرعيته - الهدف - من ماض بعيد قوامه الفضائل والحق والانتصار، متحولا إلى نموذج صالح للحاضر والمستقبل. فكانت بذلك أفعال التذكر والتخيل والحلم بمثابة المحرر للعبة التداخل واللاتجانس بين الأطراف الفاعلة في بناء النص، هذا التعدد أنتج بمعيرة السرد فضاء زمنيا جديدا تحطمت فيه أبجديات البناء الخطي للسرد الكلاسيكي، فالمتلقي وهو يقرأ "حوبة" لا يحس بذلك الترتيب الهرمي التقليدي للزمن، أو بتلك النمطية الذهنية في تتبع الحدث، فالرواية تعددت فيها أشكال السرد ولم تخضع لنموذج قار.

الشخصيات ودلالاتها التاريخية في "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر": يعدّ توظيف الشخصيات في الأعمال الروائية بنية أساسية تؤدي وظائف فنية ودلالية، فحتى ما يبدو هامشيا أو ثانويا بالقياس إلى غيره، يؤدي وظيفة في إطارها مشيئة تلك كما ذهب إلى ذلك رولان بارت، وفي سياق هذا التصور فمؤشر الأسماء التي انتقاها عز الدين جلاوي لشخصياته الروائية مخططة تخطيطا فنيا دلاليا محكما لا مجال فيه لمنطق الصدفة أو للمقاصد الاعتبارية التي تخضع لها الأسماء في الحياة العادية. هذا ما يؤكد أن دراسة الأسماء بمعزل عن البنى الوظيفية والدلالية لها داخل النص الروائي لا معنى لها، لذا نجد منظومة أسماء الشخصيات الروائية في نص "حوبة" موزعة كالآتي:

الشخصيات المؤنثة:

هي شخصيات أحكم الناص انتقاءها يحيل على موقعها في السلم الاجتماعي، مفتوحة على بعضها البعض من خلال علاقات التماثل أو المخالفة، فنجد شخصية حمادة، زكية بنت البغدادي، العلجة بنت المكي، عقيلة، سلافة الرومية، سوزان، سراولة بنت خليفة، وريدة المرقومة، حليلة، حدة المخرمة، تركية. إن شخصيات هذه المجموعة أسماء مؤنثة فهي عذبة المسمع عند اللفظ لطيفة الصوت تألفها الأذان قربا وتطمئن إليها النفوس وتبعث الانشراح والفأل جذورها ضاربة في التاريخ وضعت في صيغة توافقية تعكس دلالة مكانية.

الشخصيات المذكورة:

إذا كانت الشخصيات المؤنثة الموظفة في النص تعكس دلالة مكانية، فإن الشخصيات الذكورية هي كذلك منتقاة من البيئة الجزائرية الصرفة، دلالتها لا تقتصر على مجرد المادة المعجمية الناشئة عن التحولات الصرفية الاشتقاقية، بل فيها من الإحياءات المرتبطة بالأرض والعرف ما يجعلها منفردة في الأدب الجزائري، ومن ذلك شخصية الزيتوني، سي الطالب، بلخير، سالم، العربي، القايد عباس، الشيخ لكحل، عمار، البوهالي لخضر، يوسف، سي رايح، حمو القبائلي، أمقران، علال القهواجي، سعدان الغول، حسان بلخير، فرانكو، شمعون، صالح القاوري، فرحاة عباس، خلاف التيقير، سي سليمان، مسعود، حميد السفاح، كلها شخصيات توزعت في الرواية بين شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية بإحياءات مختلفة وفق أسلوب يزيل كل الحدود التي تفصل بين صوت السارد وصوت الشخصية مانحا المحكي طاقة انفعالية نفسية بمنولوجات دمجها الناص في محكيه في خضمه يجد المتلقي نفسه أمام محكي يزامن بين الحدث والكلام والفعل، فنجد:

1- العربي: إنه الشخصية البطلة فالعربي يمثل "ابن الريف" الذي لا يرضى بالذل والهوان فقد انزعج لمقتل والده وأراد الانتقام له، أرغمته الظروف على الرحيل إلى المدينة حيث يتعرف على أناس جدد يكتشف نمط معيشتهم فيندمج معهم ويصبح له دور بارز وفعال في تغيير نواحي الحياة السائدة، فلا يستسلم لهذا القدر، فهو في العمق قلق يظهر ألمه الذي ظل محجوبا زمنا طويلا.

2- حمامة: تعدّ شخصية حمامة من أهم شخصيات الرواية فهي تشكل أكبر حيّز في مساحة النص، ينطبق عليها مفهوم الشخصية المركبة، تمثل عشيقه الشخصية البطلة "العربي" فهي فتاة جميلة المنظر والخلق يتمناها كل من يراها، فرت مع العربي إلى المدينة هربا من أطماع القائد عباس، لتبدأ حياتها هناك، جعل منها الروائي مؤشرا يستقطب مظاهر الوعي إلى الحد الذي جعل منها رمزا للمقاومة والرفض.

3- سلافة الرومية: أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها الرواية فهي تمثل تلك المرأة الفائقة الجمال التي يرغب بها كل من يراها، عاشت وحيدة بعد وفاة زوجها ورحيل ابنها "يوسف الرومي" عنها يعتبرونها امرأة عاهرة لكنها لم تكن كذلك لقد تصدّت لكل من رغب بها فكانت امرأة طيبة القلب تنتظر فقط عودة ابنها بعد المعاناة التي عاشتها جراء فقدان أبويها وزوجها ونظرة الناس إليها.

4- سوزان: هي الزوجة والعشيقة الثانية التي أحبها السي العربي، فرنسية من أصل ألماني أنجبت منه ابنة وتركها ورحلت نتيجة الظروف القهرية التي كانت تعانها من زوجها فرانكو.

5- حسين المكحالي: الجد الذي تنحدر منه سلافة.

6- القايد عباس والشيخ عمار: شخصيتان ينعدم فيهما الضمير، فهما من خانا الوطن وباعوه من أجل مصالح خاصة فردية، كل منهما يجري وراء مصالحه إرضاء لرغباتهن فعباس كان جبارا متسلطا تابعا وخادما وفيما للمحتل الفرنسي، فهي هو ذا يطلب حمامة للزواج بعد أن وصله حسن جمالها، لكن العربي كان دائما الشخص المتصدي له، أما الشيخ عمار الذي كان مختفيا وراء الستار كونه شيخ الزاوية فقد كانت نيته خبيثة تجاه سلافة الرومية، حيث قام بخطفها وإخفاءها بالزاوية ولكن دون جدوى فقد باءت محاولاته بالفشل.

7- الزيتوني: أحد أبناء بلخير وزوج العليجة وهو الأخ الأكبر للعربي وسالم.

8- تركية: شخصية نسوية ترمز إلى المرأة الجزائرية التي تخاف على وطنها وهي زوجة السي رايح التي استضافت العربي وحمامة في بيتها واعتبرتها بنت لها، فلم تجعلها تحس بالوحدة والغربة.

- 9- السي رايح: أحد الأخيار الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن الوطن، كان حاملا للرسالة الوطنية التي تبعث على الروح القومية والنزعة الثورية من أجل رفع راية العلم الجزائري أمام أعين الاستعمار.
- 10- علال القهواجي وأمقران وحمو القبائلي وخلاف التيقير: هم أبطال تعرف عليهم العربي أثناء سفره إلى المدينة فكانوا من عوامل تمرده على الفرنسيين.
- 11- فرانكو وشمعون وماران: فرانكو جنيرال فرنسي زوج سوزان أما شمعون وماران فهما مساعداه.
- 12- فرحات عباس: شخصية مثقفة وثورية نادى بصوت العقل الحر وهتف بحياة فرنسا وقال أنها الحرية والعدالة والمساواة وكان يحلم بدولة فرنسا العظمى باشتراك العرب والفرنسيين واعتبرها دولة تحتضن كل الديانات والأشخاص واللغات.
- كل هذه الشخصيات وغيرها كانت متناقضة فيما بينها فنجد الأخيار والطيبين والأحرار المحبين لوطنهم، ومن جهة أخرى نجد المخادعين والخائنين له من أجل العيش الحسن وإرضاء المستعمر متناسين أنهم يعيشون تحت الذل والمهانة.
- نظام الأمكنة والأزمنة في الرواية من الواقع إلى الدلالة التاريخية:**

يمثل المكان محورا أساسيا من محاور الدراسات الأدبية، ينظر إليه على أنه عنصر شكلي من عناصر العمل الأدبي يلعب دورا هاما في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التعبير عن المقومات الثقافية لدي المجتمع المتحدث عنه، فهو لم يعد ذلك العنصر الجمالي الذي تتمظهر من خلاله الخلفية التي تقع فيها الأحداث الدرامية، فهو أكثر التصاقا بحياة البشر من حيث خبرة الإنسان به وإدراكه لكنه، وعلى هذا الأساس جعلنا القراءة الاستطلاعية الأفقية لرواية "حوبة" نقف عند الملمح الفني المهيمن على ما عداه وهو عنصر الزمن الروائي، والذي تتمثله بدء بعنوان الرواية التي توجي بالسيرورة التاريخية للأحداث ولعل لفظة "رحلة البحث" دليلا قاطعا على أسفار الحكايات والأحداث الجارية على تربة هذا الوطن المفقدي، فكان الفضاء المكاني والاجتماعي والأخلاقي والحضاري الأشمل لهذا العمل الروائي هو فضاء الريف الجزائري الذي يعاني زيادة عن التخلف المادي والمعنوي الاضطهاد والاستبداد، ثم يليه فضاء ثان كان بمثابة الحاضنة التي من خلالها تبلورت فكرة الجهاد فبعد أن كان إرهابا أصبح واقعا وصناعة تشكلت فيها خيوط الثورة الجزائرية، وفي إطار هذا المنظور لا حظنا أن المجال المكاني في الرواية توزع بين مكان دافع لافظ حينما ومكان جاذب مستقطب أحيين أخرى وهو ما تشير إليه:

- الأمكنة التي تجري فيها الأحداث من خلال الحضور المباشر في عالم القصة المروية، تحتسب شرعية وجودها من خلال مرجعيتها الواقعية، فهي موجودة على الخارطة الجغرافية التي تجري فيها الأحداث إنها "سطيف" و"قسنطينة"، تلعب هذه الأماكن دورا أساسيا في الإيهام بواقعية القصة وتمثل المجال الذي ينتقل فيه بطل الرواية وتجري فيها أحداثها، إن أول ما يتبادر إلى الذهن في العلاقة التي تربط بين هذه المناطق هو امتداد للأحداث المروية التي تقع على مسرحها، فهي هي ذي سطيف بأحيائها وشوارعها وكثرة شخصياتها تشهد مسيرة كبرى تحمل مطالب الجزائريين يوم 08 ماي 1945، تنطلق من مسجد المحطة وتأخذ طريقها باتجاه تمثال الجندي المجهول القائم في الكنيسة الكاثوليكية، لتبرز لنا نوعين من الأمكنة: المنغلقة المتمثلة في الأماكن التي تسمح بخلوة البطل باسترجاع ذكرياته، والأمكنة المنفتحة المتمثلة في السوق، الشارع، الجبل البحر ...

فتجلت من خلاله شخصية المقاوم الذي يدافع بشراسة عن الأرض التي ولد فيها، وشخصية الإقطاعي المزيف والشخص الاستغلالي المداهن، فكانت بذلك الجزائر هي المجال الوظيفي والموضوعاتي الأساس الذي تولدت منه مختلف أشكال الصراع الروائي الدرامي القائم على مبدأ التعارض الذي وصل في بعض الأحيان إلى حد التناقض بين الشخصيات الروائية من منطلقات عقائدية وأخرى سياسية ومنها حتى الإيديولوجية.

جدلية الزمن في الرواية :

يكتسب الزمن في الرواية أهمية خاصة فهو لا يمثل خلفية الأحداث فقط ، بل تجاوز ذلك ليصبح عنصرا فاعلا ومحددا للعناصر الأساسية التي تشكّل العمل الروائي الذي يحمله خطاب الرواية، وأحداث القصة المروية وسلوك الشخصيات، فبدأ الزمن متجليا في نسيج اللغة الذي سما بالرواية إلى مرتبة التشويق ، ما جعل نظام السرد فيها يتجاوز الجاهز إلى المتخيل .

الأحداث: تسارعت الأحداث في الرواية وهذا ما نجده في بدايتها بعد موت بلخير والد العربي بعد أن كانت هناك عداوة بين عرشي "أولاد النش" و "أولا علي" لتظهر بعد ذلك أحداث ومشاكل أعطت منحنى آخر للرواية بعد صراع حاد بين العرشين أدى إلى اهتزاز عفيف في كيان شخصية البطل الذي راح يبحث عن مخرج يخفف به من ما يتناهى إليه ، ويعزز موقفه من الإقطاعي الذي يريد إلى جانب السيطرة على الأرض التسلط على حياة الناس البسطاء الذين كانوا ضحية للاستعمار من جهة والنعرات القبلية من جهة أخرى ، فما كان عليه إلا والهروب بعشيقته ، ليصبح بعد ذلك عضوا فعالا في المدينة يحرك ويخطط للثورة.

العقدة: تمثلت في البداية في تأزم الوضع بين العرشين بعد موت الوالد ليظهر بذلك القائد عباس المتسلط من أجل الفوز بحمامة؛ لكن العربي حال دون ذلك فيهرب العربي بحمامة إلى المدينة ، حيث التمعت في ذهنه فكرة الثورة ، وتوهجت سريعا حينما وجد من يقاسمه الفكرة ويسانده في مشروعه الراقي ، ليجد نفسه مطاردا من القائد عباس وعيونه و من المعمر الفرنسي فرانكو وأعوانه ما شكّل مأزقا لدى العربي الذي تجاوز كل هذه الصعاب وراح يسلك مساره المعبد دون توقف أو انقطاع مستشرفا المستقبل وغير قابل للعودة للوراء .

الحل: استطاع العربي أن يتأقلم مع الوضع في المدينة ويكتسب صداقات كثيرة ساعدته على التخلص من القائد عباس ، وظلمه وكذلك الزواج من حمامة وإنجاب ولد منها والزواج من سوزان وإنجاب بنت منها ، والنجاح في التحريض على الثورة والخروج في مسيرة سلمية سرعان ما تحولت إلى مسيرة دامية تشعل غضب الجزائريين.

أسلوبها: اعتمدت الرواية كثيرا على سرد الأحداث وبالتالي نجد الكاتب هنا يروي خبرة سمعها ، حيث كانت لديه رغبة ودافعا كبيرا لتفريغ شحنة الانفعال لديه ، وهذا ما وجدناه عند الروائي الذي سمع للآخرين وتحدث ونقل معاناتهم وهو بالتالي يشاركهم المعاناة ، وهنا استطاع بتميز كبير وبأسلوب راق أن يتحكم في مجريات الرواية وكيفية سردها بطريقة مشوقة استوفت الشروط الفنية والجمالية ، وشدّت القارئ إليها من العنوان حتى المحتوى والمضمون ونجدها أيضا اعتمد على التنوع الأسلوبي من أجل التحكم في الشخصيات والأحداث. فكانت بذلك توجهات الناص وفلسفته في الكتابة منتجة بمعنية السرد عالما زمنيا جديدا كسر به البناء الهرمي للسرد الكلاسيكي ، فأنتج نصا أدبيا معبرا عن الفكرة والهدف في آن واحد.

سجل الأحداث التاريخية في الرواية :

متن حوبة رواية تاريخية وقائعها حقيقية تثير الماضي ، التاريخ فيها يتماها بالسرد والواقع ، وفق بناء كرونولوجي خاضع لمبدأ الحتمية ، فلم تتولد أحداثها بحكم السبب والنتيجة ، ولم تستقر أبعادها على أرض التاريخ والواقع ، ولم تصنعها الإرادة فحسب بل التخيل والواقع هما مصدرها وفيهما تكمن منطلقاتها ، فكانت أهم أحداثها التاريخية وشخصياتها الفاعلة في الساحة السياسية والثورية منعكسة في المقاطع التالية : " لطالما سأل نفسه: من هم ومن فرنسا وما علاقتهم بها ؟ ولماذا هي هنا تقمعهم بالحديد والنار وتدعم جيوشها قراهم فتفرض عليهم ما تريد ، تنزع منهم أبسط ما يملكون وتتقاسم معه غلاتهم الشحيحة ؟ وهم ليسوا سواء ملامح ولغة ودين ، كلما ذكر كلمة النصاري واليهود في القرآن ، إلّا وتذكر قول معلّمه في الكتاب ، إنهما فرنسا حتى تتبع

ملّتهمتحضره كلّ تفاصيل قصة سيف بن ذي يزن الذي تعود سي الطالب أن يقصها عليهما من كتابه الأصفر ويحلم : آه لو كنت سيف بن ذي يزن لأبدت النصارى عن آخرهم"⁴

فالمشهد يعكس سؤالاً كثيراً ما يورق الجزائريين ، يتمحور حول قيمة الحياة في ظل العبودية المملوكة عليهم من قبل الفرنسيين ، الذين اغتصبوا هذه الأرض وحرّموا أهلها من أرزاقهم ، حيث جردوهم من كل ممتلكاتهم ومارسوا عليهم الظلم والاضطهاد ، هذا الظلم الذي لا مخرج منه سوى المقاومة وإن كانت جذوتها تشتعل في كل منطقة إلا أنها سرعان ما تنطفئ ، وكأنّي بكل جزائري يستحضر موروثة تاريخيا ضاربا في الحياة العربية ، إنّه سيف بن ذي يزن البطل العربي الذي حرر قومه من العبودية. هذه العبودية التي يعكسها هذا المشهد " مع الصباح الباكر تناهى إلى السكان دوي شاحنات تقترب من القرية عبر الطريق الوعر ، وتسارع الناس يتناقلون أخبارها ويستعدون لمقابلتهابعد ساعات من التنقل بين البيوت عادوا إلى منتصف القرية يدفعون الرجال أمامهم ، وقف الضابط على مكان مرتفع وبجواره وقف المترجم ، تأبط عصاه وعدّل من وضعيّة مسدّسه تنحّج وقال : علمنا أنكم تملكون بنادق وجئنا لجمعها تعلمون أن القانون يمنع ذلك ويعاقب عليه سنّهمكم بالتمرد ، والإعداد للثورة فرنسا ستبيد كلّ حماقة منكم "⁵

من هذا الواقع المعاش الذي لا يفارق الجزائريين عرّج بنا المؤلف على تشكيلة أخرى للشعب الجزائري ، إذا أشار بطريقته السردية إلى وجود فئة من سكان الجزائر أصلها يهود ، أو ما يسميه المؤرخون "يهود شمال إفريقيا" ، فقدّمهم الكاتب بوصفين وهذا من خلال قوله : " هل رأيت السلسلة التي تتدلى من رقبتك ؟ الشّيكلة ، إنها علامة انتمائه الطائفي والمذهبي ، وبعضهم يضع قلنسوة حمراء كحيم ، لم يعلق العربي عما قاله سي رايح لكنّه فهم بعد أن اليهود في الجزائر ينقسمون إلى ثلاث طوائف : الشوشابيم وهم يهود العرب ، والميغورشييم وهم يهود الأندلس ويهود ليفورن وهم يهود أوربا كما علم أن لهم أولياء صالحين منهم ريباش وراشباش في الجزائر العاصمة وميمون في قسنطينة "⁶ وقوله " اليهود في الجزائر نوعان : يهود تواجدوا بالجزائر قبل الاستعمار الفرنسي وهم أقرب بكثير إلى الجزائريين وبين الطرفين علاقات عميقة ويهود جاؤا مع الاستعمار اللعين وفهم طباعة الغلضة الشرسة "⁷ فقد قاموا بنشر الفساد والتشجيع عليه ، مرتكبين عديد الجرائم طالت حتى الملوك ، هذا ما يظهر في قوله " لقد قامت هنا أول دولة شيعية في العالم هي دولة الفاطميين ومن عاداتهم لبس السواد حزنا على مقتل سيدنا الحسين ، فأخذ السكان العادة وهناك أنها أقرب من ذلك لقد لبست النساء السواد حزنا على مقتل صالح باي وهو رجل تركي كان حاكما لقسنطينة وما حولها عرف بالعدل والتقوى وعرف الناس في عهده رخاء كبيرا لكن اليهود اغتالوه فحزن الناس حزنا شديدا ومنذ ذلك وهم يلبسون السواد "⁸

كما أشار إلى أجناس أخرى من مختلف أطيافها عملت على احتلال المنطقة ، وهم الفينيقيون واليونانيون والأسبان "لقد اكتشفنا أخيرا مقبرة المدينة مدينة كويكول ، المدينة الحاملة التي نامت تحت الأرض قرونا ...تبعد كويكول عن سطيف بأربعين ميلا وهي مدينة رومانية بنيت زمن الإمبراطور الروماني نيفا بها عدد من المعابد ومحكمة ومسرح ...وقد شهدت المنطقة بأسرها صراعا كبيرا بين الرومان والأمازيغ من أشهر ذلك المعركة الفاصلة أشهر ذلك المعركة الفاصلة بين يوغرطا وماريوس كما شهدت نشوب ثورات أشهرها ثورة تاكفاريناس الذي كان عضوا في الجيش الروماني ثم انقلب عليهم ... جاءت بعدهم قبائل ريغة القبالة كما يعرفون الآن وهي قبائل ريغية وكان على رأسهم الملك البربري الشاب المغوار ألقاّتهن والأمير زيلبيوس البطل والشجاع المذكور في الروايات والقصائد البربرية الشعبية وهما من أسس مدينة مزلق وكانا يهينان لتكون عاصمة نوميديّة جديدة لكن قتل الملك "ألقاّتهن" والأمير "زيلبيوس" بالسّم غدرا غيلة في مأدبة عشاء أقامها الملك على شرف القبائل المنطقة

تحت لوائه في يوم النافير فترك أتباعه مزلق وتوجهوا إلى كاسيليرم فارطانيانس التي هي الآن قصر الطير لكن أيدي الغدر عاثت في صفوفهم حتى شارفوا على الانقراض... ثم عصف زلزال سنة 409م بالمنطقة فدمر كل شيء تم اكتشاف المقبرة داخل مدينة كويكول سنة 1910⁹

لم يكتف الروائي بالإشارة إلى اليهود وقدمهم للجزائر عبر مراحل زمنية مختلفة ، بل راح يتعمق في التاريخ الجزائري واقفا على حفرياته ، مقدما عديد الحملات الاستعمارية التي تعرضت لها المنطقة برمتها ، إذ أن سكانها الأوائل هم في الأصل أمازيغ تعرضوا لمحاولات طمس وإبادة من طرف أجناس مختلفة ، من رومان ووندال وبيزنطيين وفينيقيين ، فيقول: "جلس أمقران إلى جواره وأخبره أنه باحث في الروحانيات يعتم كثيرا ويسعى لإحضار أرواح أجدادنا الأمازيغ الذين عمروا هذه الأرض قرونا قبل مجيء العرب والإسلام ، وخاضوا حروبا ضد الرومان والوندال والبيزنطيين وامتزجوا مع الفينيقيين مؤكدا أن ما يراه من حروف لم يفهمها هي التيفيناغ وهي الحروف التي كتب بها أجدادنا الأمازيغ منذ بداية التاريخ"¹⁰ مشيرا إلى مملكة الأمازيغ المنبعثة من صحراء الأهقار وهذا بقوله "وراح أمقران يحدثه عن تينينان الملكة المتمردة صاحبة الحكمة والدهاء الكثيرة السفر والترحال وتقول الروايات أن تينينان قدمت من منطقة تلفيلالت الواقعة بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى ممتطية ناقمتها البيضاء وبرفقة خادماتها "تاكامات" وعدد من العبيد لتستقر بقاقلتها الصغيرة في منطقة الأهقار الجبلية ... وقيل إن قافلة الملكة طال بها السفر ونفذ زادها وكان أفرادها أن يهلكوا جوعا وفي لحظات صعبة تفتنت خادماتها الخاصة "تاكامات" لقوا فل النمل على طريقها وهي تحمل حبات القمح والشعير ، فأمرت تينينان بمواصلة الطريق في المنحى المعاكس لمنحى سير القوا فل النمل إلى أن وصلت إلى الأهقار فوجدت به الأمن والماء فشيدت صرح مملكتها هناك ... ويروى بأن تينينان استغلت جمالها لتسيطر به سياسيا على منطقة مزدهرة وقتها وحكمت عددا كبيرا من جميع قبائل التوارق الحالية في بلدان الصحراء الإفريقية الكبرى"¹¹.

كما يتجلى الوعي التاريخي في هذه الرواية في وثائق ورسائل مشهود لها في كتابات التاريخ الجزائري من 1920 إلى 1945 وحضور شخصيات تاريخية واقعية كشخصية المقراني وشخصية فرحات عباس وشخصية عبد الحميد بن باديس وشخصية البشير الإبراهيمي وشخصية محمد بوراس مؤسس الكشافة الجزائرية ، وخصية سعال بوزيد. كل شخصية لها من الميزات ما يجعلها تتخذ موقفا من فرنسا فما عدا فرحات عباس صاحب مقولة "لن أموت من أجل الوطن" وفكرة الإدماج والمساواة الذي دعا صراحة إلى المساواة بين الجزائريين والفرنسيين ومنح الجنسية الفرنسية للنخبة ف "كان فرحات عباس قد أنهى دراسة الطب والصيدلة في الجزائر ، وكان إلى جانب ذلك شابا طموحا مثقفا مطلعاً بشكل عميق على آداب الغرب وثقافته متأثرا بها ... فرحات عباس مؤسس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا وعمل رفقة الأمير خالد"¹².

أما غيره من المناضلين السياسيين قرروا عدم الاستسلام لخطط فرنسا ، وهذا بتجاوز المحن السابقة "فشلت ثورة المقراني سنة 1871 ثم فشلت ثورة الأوراس 1916 يجب أن نعدّ العدة لثورتنا نحن أيضا هذه الأرض ما زالت ضامنة إلى دماء الطاهرين"¹³ هذا على المستوى العسكري ، أما على المستوى الجمعي والتعليمي والدعوي فقد برز تياران مهمان في الساحة الجزائرية الأول تيار سياسي مثله مصالي الحاج الذي دخل في خط المقاومة ، بتأسيسه حزب نجم شمال إفريقيا في 20 جوان 1926 ببباريس ، من مبادئه مساعدة مسلمي شمال إفريقيا مناديا بالتححر التام من الاستعمار والثاني تيار ديني مثله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي اتخذت من الدعوة والتعليم منهاج لمحاربة الاستعمار وهذا ما عبّر عنه الروائي بقوله "وصلني نبأ تحرك ابن باديس والإبراهيمي وغيرهم لتأسيس جمعية إصلاحية هدفها المطالبة باستقلال المساجد واستغلال التعليم العربي"¹⁴ و

أردف قائلا: "الحمد لله لقد أعلن أمس الخامس من شهر ماي بنادي الترقى بالعاصمة عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وقد أسندت الرئاسة لعبد الحميد بن باديس واختير إبراهيمي نائبه " ¹⁵ الذي كان من آلائه خروج مظاهرات عارمة تندد بالقمع والاضطهاد " قدر المتظاهرون في أحداث قسنطينة بعشرة آلاف مشارك وقتل في المشادات ثلاثة وعشرون يهوديا وأربعة جزائريين سقطوا تحت ضربات القناصة السينيغاليينهل كانت قسنطينة تعيد ذكرى سقوطها المنوية تستروح عقب الرجال الأحرار الذين نهضوا ها هنا منذ مائة سنة ... هل كانت تستروح عقب أحمد باي والحسين المكحالي " ¹⁶ .

مزامنة مع هذا الحراك ظهر رجل آخر بجمعية ذات أبعاد إسلامية ، عملت بطريقتها الخاصة على مقاومة الاحتلال الفرنسي ، ترأسها محمد بوراس "إنه محمد بوراس قلب الكشافة النابض وعقلها الخلاق ...كان في مقتبل العمر حليقا وسيما أنيق الثياب " ¹⁷ ليكون حلقة من حلقات المقاومة الوطنية ، فعمل مؤسسها محمد بوراس على شحذ همم الناشئة للانخراط فيها ، معط لهذه الحركة بُعد المقاومة ، ما جعل فرنسا تغتاله في 27 ماي 1941 " لا أخفي عليكم أيها الإخوان أن سي محمد بوراس قد اتفق مع بعض سكان مليانة على إعلان الجهاد ضد فرنسا ، وخاصة سكان جبال زكار ، حيث كان يعمل في المنجم ...هاجر إلى فرنسا وإلى فيشي بالذات متذرعاً بالاتصال مع الكشافة الفرنسية لتنسيق الجهود لكن سي محمد بوراس استغل الفرصة واتصل بالألمان طالبا السلاح وفعلا وعدوه وبقي ينتظر زمنا دون جدوى حتى خشي من افتضاح أمره مما اضطره للعودة إلى أرض الوطنمساء السابيع والعشرون من شهر ماي شاعت فاجعة إعدام البطل محمد بوراس رميا بالرصاص في الميدان العسكري بالخروبة " ¹⁸ ورغم ذلك واصل الكشفيون مهامهم الوطنية متمثلة في :

- توزيع منشورات الأحزاب الوطنية ن خاصة منشورات حزب الشعب ومنشورات حركة أحباب البيان
- عقد الاجتماعات التكوينية في بيوت المناضلين
- المشاركة في المظاهرات ، أبرزها مظاهرات 8 ماي 1945 أين استشهد الكشاف بوزيد شعال

بعدما حلّ المستعمر الفرنسي حزب نجم شمال إفريقيا أعلن مصالي الحاج تأسيس حزب الشعب الجزائري عام 1937 الذي كان امتدادا للنجم ، وقام على نفس فلسفته طامحا لتنمية الحماس في نفوس الجزائريين ودفعهم للجهاد. فكان "نداء الوطن أقوى من كل نداء ...راحت الأخبار تتوالى عن النجاحات الكبرى التي حققها قادة النجم وأنصاره في باريس ... حتى نظموا مظاهرة حاشدة اشترك فيها ثمانون ألفا رفعوا فيها جميعا العلم وطنيا وهتفوا جميعا باستقلال الجزائر وإطلاق صراح مصالي ورفاقه ، وغدا مصالي في نظر الجميع بطلا أسطوريا كبيرا زعيما وطنيا عظيما ، وشاعت بين الناس مواقف الصلبة في المطالبة باستقلال الجزائر كلية عن فرنسا ، ومطالبته كل القوى الوطنية الأخرى ليغيروا مسارات قوافلهم " ¹⁹ فعمل على المواجهة المباشرة مع المستعمر.

" أيها الإخوان لقد وصلني نشيد النجم كتبه شاعرنا مفدي زكرياء ، وانتم تعرفون أن قادتك في السجون والوفاء يقتضي تذكركم ، اقترح أن يتخذ فوج الحياة هذه القصيدة نشيدا له ، واستحسن الجميع الفكرة ، قال سي الهادي أرجو أن تستمعوا النشيد ونحفظه جميعا :وسلمت الورقة إلى حسان بلخيرد ، تأملها لحظات ثم رفع صوته منشدا : فداء الجزائر وروحي ومالي ألا في سبيل الحرية

فليحي حزب الاستقلال ونجم شمال إفريقية

وليحي زعيم الشعب مصالي مثل الفدا والوطنية

ولتحي الجزائر فيها العروبة

وامتلاً المكان بإنشاد الجميع في حماس كبير لم يألفوه من قبل ولم يعد للناس في المدينة من حديث إلا عن ظهور فوج الكشافة وتحمس كثير من الشبان على الانخراط فيه حتى فاقوا التسعين وقد قسموا إلى أشبال وفتيان وجوالة²⁰ ونظراً للحراك الشعبي على جميع المستويات راحت فرنسا تصفي قيادات الأحزاب والحركات ظناً منها بأنها ستند الثورة ، لكنها زادت من عزيمة الجزائريين فانخرطوا زرافات وفرادى في الحركة الثورية، وهذا ما عبّر عنه الروائي بقوله:

"ولم ترعويد فرنسا الأثمة عن الإمعان في ارتكاب جرائمها القذرة ،لقد امتدت لتعتقل العشرات ممن توجست منهم خيفة ، مصالي الحاج ،وعمار عيماش ومفدي زكرياء ونفي الأبراهيمي إلى منطقة أفلو بالصحرى الجزائرية ،أما ابن بادس فوضع تحت الإقامة الجبرية بقسنطينة وتدهورت صحته سريعاً لأسباب غامضةصباح الأربعاء كان الجوربيعي رائق مع نسيمات برد خفيفة فجأة راح الناس يتقاطرون على مسجد المحطة ...وفي الطريق لم يتوقف الجميع عن ذكر فضائل ابن باديس ،وجهاده في نشر الوعي ،واسماع صوت الجزائر إلى العالم"²¹ وأردف في موضع آخر ، إراد مشهد روائي يصف به حالة الهستيريا التي أصابت فرنسا ، خاصة بعد ما خلف وعدها للجزائريين بمنحهم الاستقلال في حالة انتصارها على ألمانيا ولما كان لها ذلك خرج الجزائريون فرحين بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، ظننا منهم بأن فرنسا ستوفي بوعدها إلا أنه قبلوا بمجازر راح ضحيتها آلاف الشهداء ،سميت بأحداث 8 ماي 1945

"لقد حكم على مصالي الحاج بالنفي من الوطن تماماً ،ربما إلى برازيللقد وعدوا بمنحنا حريتنا بعد نهاية الحرب ابن وعودهم ؟ .. فرح كبير راح يظهره الحلفاء في كل مكان وقد انكسرت شوكة ألمانيا وأتباعها إلى الأبد صرخ محافظ الشرطة فلارفي الفتى وهو يشق الصفوف : اخف هذه الخرقه وإلا أرديتك قتيلاً...وانطلقت الزغاريد وانطلق الرصاص من مسدس المحافظ وتهاوى الفتى لكن الراية لم تنهت وتلقفتها الأيدي وكثر إطلاق الرصاص"²².

فكانت بذلك نهاية الرواية التي شكلت لعز الدين جلاوي رؤية مسردية لفصل آخر من الثورة التحريرية ، أخرجته في جزء ثان ، سماه الحب ليلاً سرد فيه أحداث ثورة 1954.

على سبيل الختام :

وفي ختام هذه المسحة التاريخية على أهم المحطات الثورية المبثوثة في المحكي الروائي حوبة ورحلة المهدي المنتظر ، نستخلص أن شخصيات الرواية اتخذت أشكالاً متعددة منها الحقيقية ومنها المتخيلة ، وإنّ التعامل مع الشخصية التاريخية صعب للغاية كونها تدخل للعمل الروائي بملابس جاهزة لا يمكن إبعادها عنها أو اقتراح ملابس جديدة لا علاقة لها بالصورة المرسومة عنها .

ويتجلى الوعي التاريخي في الرواية في وثائق ورسائل ومصادر مشهود لها في كتابات تاريخ الجزائر في فترة 1920/1945 وحضور شخصيات تاريخية واقعية كشخصية سعال بوزيد ، محمد بوراس ، مصالي الحاج ، ابن باديسما جعل الروائي يجتهد لتأنيث النص بمراجع تاريخية وفق قراءة متمحصة لمعظمها ، خالفاً بعداً فنياً مبتعداً به عن الوثائقية التسجيلية.

كما نلمس في الرواية عديد المحطات التاريخية ذات الأبعاد الثورية ، إذ نجد الأدب ينتقل عبر الأزمنة التاريخية ناقلاً مشاهد حية عن الثورات التي خاضها الجزائريون لدحض المستعمرين الذي مروا على هذا الوطن عبر التاريخ.

إِحَالَاتُ الْبَحْثِ

- ¹ - عبد الفتاح كيلوطو : الادب والغربة ، دراسات بنيوية في الادب العربي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط1 ، 2006 ، ص 39.
- ² - أنظر محمد نجيب لفتة : ولتر سكوت والرواية التاريخية ، المجلة الثقافية الجامعة الاردنية ع4 آذار 1997 ، ص 185.
- ³ - فيصل دراج : الكتابة الروائية وتاريخ المقموعين ، مجلة الكرمل ، ع77 صيف ، 2003 ، ص 54.
- ⁴ - عز الدين جلاوي : حوبة ورحلة المهدي المنتظر ص : 41.
- ⁵ المصدر نفسه ص : 113
- ⁶ المصدر نفسه ص 148.
- ⁷ ص 236
- ⁸ ص 332
- ⁹ المصدر نفسه ص 200/199
- ¹⁰ المصدر نفسه ص 197
- ¹¹ المصدر نفسه ص 189
- ¹² نفسه : ص 396 / 395
- ¹³ المصدر ص 214
- ¹⁴ المصدر صفحة : 366
- ¹⁵ نفسه 376
- ¹⁶ نفسه ص 423
- ¹⁷ نفسه ص 454
- ¹⁸ نفسه 506/505
- ¹⁹ نفسه ص 461
- ²⁰ نفسه ص 462/461
- ²¹ نفسه ص 494/493
- ²² نفسه 550/530.